الجزء الثاني

الحدود الحضارية للإسلام

obeikandl.com

في كتابه "صدام الحضارات"، أورد "صموئيل هانتنجتون" المصطلح غير الموفق "حدود الإسلام الدموية". ففى عالم تسوده الصراعات الدموية، علينا أن ندرك أن الحدود الدموية تنشأ عن اصطدام طرفين على الأقل. وسنقوم هنا بتنحية الإسلام بعيدا عن موطن بعثته في إقليم الشرق الأوسط، وننظر كيف تفاعل مع أربع حضارات عظمى حين تم اللقاء، وكيف تم إرساء صيغ للتعايش المشترك مع روسيا وأوروبا والهند والصين.

أولا، أرغب فى الابتعاد عن الاستخدام الشائع لمصطلح "الإسلام"، إذ إنه، ومع انتشار ذلك الدين، فإننا نكون نتحدث -حقيقة- عن "المسلمين" ... فيم كانوا يفكرون، وعما كانوا يتحدثون، وماذا كانوا يفعلون، وكيف كانوا يتفاعلون مع الحضارات غير الإسلامية. وهنا، فإن المحك والأمر الأكثر أهمية هو كيف ينظر المسلمون إلى دينهم وحضارتهم، وكيف تجيء أفعالهم تجاوبا مع تلك النظرة. وهو

obeikandl.com

الأمر الذى يفوق فى أهميته نظرة الآخرين إلى الإسلام، وتفكيرهم بشأنه. فالإسلام، فى نهاية المطاف، هو ما يقول المسلمون إنه كذلك، وهو ما تسفر عنه أفعالهم. وبالطبع، ينصرف ذلك إلى أمور جد متباينة.

ومن خلال تناولنا لتفاعل المسلمين مع غيرهم من المجتمعات غير المسلمة، سنتمكن من إدراك النهج الذى يسلكه الإسلام فى ظل مختلف المواقف، كما سنتمكن من معرفة مدى مرونته وصيغه العديدة التى يتشكل وفقا لها. وبينما نقوم بملاحظة تلك التفاعلات، نلمح ثانية أن العقيدة الدينية ليست هى العامل الحاسم، إذ إن الإثنية والبعد المجتمعى ينهضان ليمثلا ذلك العامل. فهل ارتبط الإسلام بنوع من عداء لا يتزحزح، وحرب دينية ضد تلك الحضارات غير الإسلامية؟ أم تراها هدنة ما، أو بالأحرى حرباً باردة، ... أو لعله تعايش فيما بينها؟ وهل يشارك الإسلام تلك الحضارات بعض المصالح المشتركة؟

إن معظم حالات "حدود الإسلام" التى سنوردها تباعا، لا تنصرف، حقيقة، إلى الحدود ذاتها، وإنما إلى العلاقات التى تربط المسلمين بالغير داخل الحضارات غير الإسلامية باعتبارهم أقليات دينية. ففى كل منحى وشأن، أرسى المسلمون دعائم علاقات مميزة للحياة بجوار غير المسلمين. بيد أنهم لم ينحرفوا قط عن مبدأ مهيمن وذى سطوة : التمسك الشديد بمعتقدهم الدينى، واحتضانه، وحمايته، ورعاية المجتمع المسلم داخل حدود البلدان ذات الحضارات غير الإسلامية. وذلك يعنى الرفض الشديد للتخلى عن الهوية الإسلامية المميزة لهم، وكذا مقاومة امتصاصهم أو استيعابهم بحيث تتلاشى حضارتهم وتذوى. على أنه لا يفهم من ذلك أنهم لن يندمجوا بالكامل كمواطنين فاعلين منخرطين فى نسيج مجتمعاتهم. وبالمثل، فقد مر اليهود بتجربة مشابهة إلى حد بعيد على امتداد تاريخ صراعهم لحماية مجتمعاتهم، والحفاظ على الطابع الفريد لحضارتهم المميزة عن طريق المقاومة الواعية لمحاولات استيعابهم وتذويبهم، ومن ثم اندثارهم بالكلية. ونلحظ، كذلك، قدرة المسلمين الفائقة على التعايش مع غير المسلمين، بل ومشاركتهم فى التلاقح الثقافى البينى فى مجتمعات تفتقر إلى روح التعددية الثقافية. وفى تناولنا للحالات الأربع، نلمح استراتيجيات "إسلامية" متعددة : التواؤم، والانصهار، وأحيانا المقاومة حال التهديد، مع إدراك كامل لحقيقة كون المسلمين أقلية فى تلك المجتمعات.

على أن مصطلح "الحدود الدموية" لا يخلو من بعض وجاهة، إذ يذكرنا هانتنجتون -وإن سبقه آخرون- أنه وعلى امتداد التاريخ، فإن "الحضارات" يمكنها بالفعل أن تمثل "خطوطا فاصلة". فالخطوط الفاصلة هى، فى حقيقة الأمر، أية "حدود" يمكن أن تنفجر إلى صراع : يمكن أن توجد بين العشائر، وفى القرى أو الأقاليم، أو الدول، أو فيما بين القارات والحضارات.

كيف، إذاً، للحضارة أو الجماعة أن تتجانس أو تتماسك؟ يعتمد هذا على الأحوال المحيطة، إذ يمكن أن تتشظى أية جماعة، فى ظل ضغوط بعينها، إلى

مكونات أصغر. ولكن، ما الذى ينشئ الحدود فيما بين الجماعات – وما مدى صلابتها؟ يعتمد ذلك، كما سلفت الإشارة، على الظرف المحيط. ولعل المثل الشعبى الذى يصور الحالة هو : "أنا وأخى ضد ابن العم، وأنا وابن العم ضد الغريب".

وهنا، فإن ما سبق كله يبقى ذا أهمية، فالإسلام ليس بالضرورة الحد الفاصل الذى يتفاعل المسلمون إزاءه فى كل مرة. فقد تتنوع الجماعات التى يمكن أن تواجه بعضها البعض عند خطوط المعارك. فتارة يكون المسيحيون إزاء المسلمين، وأخرى يكون المسلمون إزاء الهندوس، كذلك يمكن أن تكون المواجهة بين السنة والشيعة، أو بين المسلمين الأتراك والمسلمين الأكراد، أو بين العديد من الميليشيات الشيعية العراقية. إذاً، فالجبهة التى تنتظم عناصر متضامنة تختلف على الدوام كما هى الحال بين الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية. ولعله يمكننا، فى هذا الصدد، أن نتخيل كوكبا أرضيا تتجاذبه الانقسامات وقد أضحى فجأة كلا موحدا متضامنا لصد أى عدوان محتمل من "قاطنى المريخ".

إذاً، فليس مستغربا أن نجد الصراع "المحلى" أينما كان الأكثر شيوعا مقارنة بالصراعات ذات المدى الأعم، وهو ما نشهده فى الصراعات الناشئة عن "التجاور الجغرافى"، حيث تصطرع الأطراف فيما بينها بسبب ذلك "التجاور". بل إن الصراعات الناشئة بين المسلمين أنفسهم، أو المسيحيين فيما بينهم هى أكثر ذيوعا من أية صراعات "حضارية". إذاً، "فالصراعات الحضارية" الكبرى التى تحدث عنها هانتنجتون هى تصور "نظرى" بحت، بل هى محض خيال. فمن العسير أن تنخرط حضارة بأكملها فى صراع ضد حضارة أخرى – إلا أن الأمر قد غدا أكثر يسرا فى الآونة الأخيرة، حيث قامت وسائط الإعلام المتعددة بخلق شعور من التضامن الجماعى وفقا لنطاق أوسع وأرحب. إذ يمكن للإعلام أن يظهر عدوا نائيا –وفق البعد الجغرافى– على شاشات التلفاز بحيث تتم مشاهدته فى "غرفة المعيشة"، وبذا يتم تأجيج المشاعر ضده "من البعد". إذا، "فها هم المسلمون" أو "ها هم المسيحيون" أو "ها هو الغرب". وربما كانت الحملات الصليبية أشبه حدث شهده

العالم، حتى اليوم، لما يمكن أن نطلق عليه "صراعا حضاريا" ... تلك الحملات التى صيغت الدعوة إليها بوهج وألق فى خطابات البابا "ايربان الثانى" المثيرة عن التهديد الذى يمثله "أولئك الكافرون". بيد أن معظم المسلمين لم يكن يعلم شيئا، وقتذاك، عما كان يجرى حينها.

وتبدو أهمية كل ما سبق ذكره حين نتناول قضية الأقليات المسلمة التى تحيا فى مجتمعات على خلاف معتقدها. كيف سيتفاعل المسلمون هناك؟ أمن خلال "كتلة" إسلامية؟ ربما لن يكون الأمر كذلك، إلا إذا كان المسلمون يرزحون تحت ضغوط جسيمة أو تفرقة أو تمييز بالغين نظرا لكونهم مسلمين فى المقام الأول. وبالمثل، فمن المحتمل أن تنطوى الحالة على صراع بين جميع مواطنى إقليم جنوبى من جهة، وبين مواطنى آخر شمالى من جهة أخرى. أو بين مجتمعات تضم خليطا من مسلمين ومسيحيين، أو أخرى تنتظم طوائف مسلمة وأخرى هندوسية تنتمى لجماعة لسانية واحدة تأتلف ضد إثنيات جماعة لسانية أخرى، كما فى حالة الأكراد الشيعة والسنة ضد الأتراك الشيعة والسنة. إذاً، فلا يمكن لنا أن نتنبأ، إذ إن الأمر كله يرتبط بالموقف المحيط، وكذا فهو متغير حيث يعمد الأفراد والجماعات إلى إعادة تقييم مصالحهم الذاتية باستمرار. لذا، يصبح من الحماقة التسليم بوجود عداء إسلامى تلقائى للجار غير المسلم، إلا إذا وجدت أمور سيئة تأخذ مكانها فيما بينهم، وهو الأمر المحتمل الحدوث بين الحين والآخر. إذاً، فالدين – وبخاصة الإسلام إزاء غيره من الأديان– يعد أساسا "مراوغا" للصراع. كذلك، فالتسليم بوجود صراع دائم ما بين المسلمين وغير المسلمين لهو أمر شديد الحماقة. لذا، فإنه حتى فى ظل "عالم بلا إسلام"، يكون هناك الكثير من "خطوط التماس" التى تصارعت، فى ظلها، مجتمعات، وما تزال – بل والتى ستتصارع أيضا فى ظلها مجتمعات فى المستقبل. فعلى امتداد التاريخ البشرى الممتد والموغل فى القدم، تبدو "الإثنية" على رأس القائمة، أيا ما تم تعريف "الإثنية" ... باعتبارها هوية أرسيت بوعى تام.

هل هو احتكار لمناهضة الغرب؟

تبدو دراسة المسلمين فى المجتمعات غير الإسلامية على قدر من الأهمية، إذ تكشف عن وجه آخر من أوجه الهجوم الموجه ضد الإسلام : كون الإسلام مناهضا للغرب بالأساس. والحقيقة أن أكثر بلدان العالم وشعوبها قد تراكم لديه، عبر الزمن، مبررات للإعجاب بالغرب، ومبررات لكراهيته. فمناهضة الغرب ليست حكراً على المسلمين – بالرغم من أن ملابسات الحرب العالمية ضد الإرهاب خلال العقد الأول من القرن الحادى والعشرين قد نجم عنها حالة من العداء لأمريكا بين صفوف المسلمين. على أن تلك المرحلة سوف تنتهى يوما ما. إلا أن مناهضة أمريكا أو مناهضة الغرب يمكن أن تنفجر مرة أخرى، كما حدث فى الماضى من قبل حضارات أخرى كالصين وبلدان أمريكا اللاتينية.

وفى هذا الخصوص، فقد صدرت آلاف الكتب عن الفكر المنطوى على عداء الغرب ومناهضته –والتى تمحورت حول السؤال : "لماذا يكرهوننا؟"– والذى قدمت بشأنه إجابات هزيلة كالعادة. بيد أن إشكالية الجدل الأساسية كانت، حقيقة، تنحو إلى السؤال عما إذا كانوا "هم" يكرهوننا بسبب أمور قد قام بها الغرب؟ أم يكرهوننا لأسباب تعكس حيرتهم وأحقادهم وقصور فهمهم؟ ترى على من ننحى باللائمة ... أنلوم أنفسنا أم نلومهم لكراهيتهم لنا؟

ويبدو أنه سؤال بلا إجابة، أو بالأحرى، وتحريا للدقة، هو سؤال بحاجة إلى إجابات متعددة. فمن ناحية، فإن المسلمين وغيرهم يكرهون الغرب بسبب ما اقترفه بحقهم : الغزو، المستعمرات، المد الإمبراطورى، الحروب، الانقلابات، الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية، نهب الموارد واستغلالها، الصلف، اللامبالاة، عدم احترام خصوصية الحضارة والثقافة الغربية. ولقد سمعنا ذلك الطرح مرارا ... وهو طرح ينطوى على كثير من أوجه الحقيقة.

وبالنسبة لأولئك الأمريكيين الذين يجدون غضاضة فى تقرير أى تراث ممتد

ومتصل الحلقات من الممارسات الأمريكية المدمرة ضد بلدان العالم الأخرى – تكون الاستجابة الأكثر إغراء، "تلك هى الحقيقة، فلوموا أمريكا". لذا، نقوم بالبحث عن إجابات مريحة تخدم أهدافنا :"إنهم يكرهوننا بسبب ما نتمتع به من حريات"، إنهم يحسدوننا لما نمتلكه من ثروات ولأسلوب معيشتنا المميز، إنهم يفضلون أن يلوموا الغرب بدلا من أن ينظروا إلى ما بهم من نقائص. وينطوى كل ذلك أيضا على قدر من الحقيقة، وإن لم يصب كبد الحقيقة بعد.

وأيا ما كانت جذور مناهضة الغرب وعدائه، فلا تزال الظاهرة تمثل مشكلة للغرب وللولايات المتحدة الأمريكية. فكيف يتوافق ذلك كله مع نظرة الإسلام للعالم ككل؟

إن نظرة معظم البلدان النامية تجاه الغرب المعاصر، وبخاصة الولايات المتحدة، تمثل مزيجا من إعجاب وتقدير وخوف وغضب. فنظرة الإعجاب بالغرب قد نشأت نتيجة لتنامى وتائر التنمية الاقتصادية والسياسية به بدءا من القرن السادس عشر، إلا أن التطور الهائل على الصعيدين التقنى والعسكرى بالغرب هو، تحديدا، المسئول عن الغزو الغربى للحضارات الأخرى.

إذاً، فما القواسم المشتركة لعناصر مناهضة الغرب بين الحضارات الأخرى المعادية له؟ وهل يمكن لجبهة مناهضة للغرب أن تتحد فيما بينها لتثمر ردة فعل ملموسة ضد الولايات المتحدة؟ هل نحن ماضون نحو عالم تصدق عليه صفة "الغرب ومن عداه". يبقى هذا كله تجريدا للواقع. فالغرب ليس كيانا موحدا أو كتلة متجانسة، فهناك أكثر من "غرب" يتناوبون الحروب فيما بينهم على امتداد معظم سنى التاريخ. وبالمثل، فهناك أكثر من "شرق"، وأكثر من "إسلام"، وبالطبع أكثر من "من عداه". على أن هذه المصطلحات لا تكون ذات نفع أو مغزى إلا إذا اندمجت لتشكل نوعا محددا من القوى السياسية الناشطة القادرة على تغيير ما يلزم مما يعنينا.

وفى الآونة الأخيرة، فإن ائتلافا "ممن عدا الغرب" يشهده مسرح الأحداث جزئيا ... وهو ائتلاف مناهض للغرب وللولايات المتحدة. فالعالم الإسلامى، اليوم – وهو عالم راديكالى مشتت مستثار يضج جراء "الحرب العالمية ضد الإرهاب"، والمعلنة من قبل جورج بوش الابن وإدارته– ليمثل درجة عالية من تضامن ذاتى الوعى ... وهى درجة تفوق كل ما خلاها على امتداد التاريخ. ولعل ذلك النوع من تضامن المشاعر لا يمكن توظيفه واستغلاله مباشرة من قبل أية دولة على حدة، ولكنه يمكن أن يحدث ثورات وممارسات إرهابية متكررة، وتعطيلا وتسويفا للأهداف الأمريكية، وذلك على الصعيد الدولى. فالرؤى الإمبريالية للإدارة الأمريكية بقيادة بوش، والتى اقترحها الاستراتيجيون من المحافظين الجدد على نحو صريح، وأشكالها الأخف ظلالا فى عهد كلينتون، – قد ولدت المزيد من المشاعر المناهضة للولايات المتحدة على امتداد معظم بلدان العالم، فى العالم الإسلامى، وروسيا، والصين، وأمريكا اللاتينية. وحتى لو لم تستطع تلك القوى الاندماج لتشكيل تهديد عسكرى متماسك ضد الولايات المتحدة، فإنه يمكنها بسهولة تكثيف الجهود لإعاقة الاستراتيجية الدولية لأمريكا عن تحقيق مآربها. وهو بالفعل ما نجحت فى تحقيقه، إذ أدى مجرد سلوكها العدوانى إلى تقليص هيمنة إدارة بوش، وشل قدرتها على القيام بما تريد.

لذا، فكلما تفكرنا بشأن "حدود الإسلام الدموية"، وجدنا أننا نتحدث، بالفعل، عن منظومة معقدة من الظواهر والأحداث : حماية الجماعات ذات الحضارة والثقافة من خطر الهجوم عليها، والاستياء المشترك من المظاهر العدوانية للغرب، ومحاولات الدول لجعل رعاياها وحدة متجانسة. فإذا ما ذهبنا إلى أن الإسلام هو العامل الفاعل فى الخلافات المجتمعية ... فكأننا نكثف توجهاتنا ونركز أبصارنا على حالات بعينها من الصراع الدولى فى لحظة تاريخية بعينها. كذلك، فإن الإيمان بأن زخم العداء للغرب لم يكن ليوجد إذا لم يكن ثمة إسلام على الإطلاق ليعد محض سذاجة. فروسيا، والصين، والهند – كحضارات ثلاث من تلك الأربع التى

سنتناولها بالتحليل – لديها جذور راسخة من مناهضة الغرب وفقا لوجهة نظر كل طرف على حدة. ويتواءم المسلمون مع تلك الأنماط بشكل أو بآخر.

أولا : سنتناول "روسيا" بشئ من التفصيل، كونها بلداً محورياً فى سردنا الذى سيلى. إن روسيا على قدر كبير من الأهمية يفوق أهمية البلدان الثلاثة الأخرى: فقد ورثت روسيا مباشرة عن الحضارة البيزنطية نظرة الاشمئزاز للغرب، فضلا عن قيامها بترسيخ تلك النظرة، كذلك فهى تضم أعدادا كبيرة من المسلمين بداخل حدودها، فضلا عن تقليب نظرها على امتداد القرون للاهتداء إلى الطريقة المُثلى للتعامل معهم فى ظل الحكومات المتعاقبة إبان الإمبريالية، والشيوعية، وأخيرا، فى ظل "حكومات ما بعد انهيار الشيوعية". وأخيرا، فإن روسيا ما تزال منخرطة بعمق فى الشرق الأوسط ... ذلك الإقليم الذى يمثل، بصورة أو بأخرى، عداء مشتركا للغرب وارتيابا تجاه أفعاله وممارساته.

الفصل السابع

روما «الثالثة»:
روسيا والإرث الأرثوذكسى

باقتراب القرن الخامس عشر الميلادى، كانت بيزنطة تحتضر إذ قضى الغزو العثمانى فى عام ١٤٥٣ على آخر بقايا الإمبراطورية. على أن مفهوم الكنيسة الأرثوذكسية -الكنيسة الكبرى (الأم)- كان محفورا فى وجدان الإقليم على امتداده، فلم يكتب عليه الموت كما كتب على الإمبراطورية. وفى الفصل الحالى، سنرى كيف انتقلت الشعلة البيزنطية إلى روسيا حيث احتفظت بشرارة الاستياء من الغرب والتشكك به، وكيف تم احتضان تلك الشرارة لتتخذ شكلا جديدا على مدار خمسة قرون إلى يومنا هذا. وقد استمر عداء الكنيسة الأرثوذكسية للغرب قائما حتى بعد أن تزيت الإمبراطورية بإهاب إسلامى فى أعقاب الغزو.

obeikandl.com

إذاً، فقد استطاع الإسلام -فى تلك المرحلة- أن يستكمل فرض هيمنته، وبسط نفوذه على امتداد كامل الإمبراطورية البيزنطية البائدة - وقد تشابهت الإمبراطورية العثمانية مع سابقتها البيزنطية فى العديد من المناحى والأمور، إلا أن الأولى كانت ترتدى حلة إسلامية. فالعثمانيون كانوا قد ورثوا العديد من مؤسسات بيزنطة الطليعية الكبرى، وعمدوا إلى استكمال اضطلاع تلك المؤسسات بمهامها فى إدارتهم لإمبراطوريتهم متعددة الملل والإثنيات، وتصريف شئونها. وعلى حين كانت الضربة التى وجهت إلى المسيحية الشرقية ضربة قاصمة أدت إلى هزيمتها وفقدان سلطانها، إلا أنه من المهم ملاحظة أن الإسلام لم يصبح العدو الأبدى اللدود للمسيحية فى تلك البقاع الشرقية من العالم، بل كان التعايش هو السمة السائدة هناك. وأيا ما كان شعور المسيحيين الآن فيما يتعلق بتلك الحقبة، فلم يكن ثمة بديل -آنذاك- سوى التعايش الحميمى بين كلا الطرفين. وبالطبع، وجدت توترات عدة

هنا وهناك ... كبعض الانتفاضات والثورات المحلية التى اشتعلت بين الحين والآخر، خاصة عندما بدأ نفوذ الإمبراطورية العثمانية يضعف تدريجيا، وتتنامى الحركات الانفصالية القومية والمدعومة من قبل أوروبا. وقد تم إخماد بعض الثورات المندلعة على نحو وحشى قاس. إلا أن الرعايا المحليين من المسيحيين كانوا قد انتفضوا وثاروا -أيضا بين الحين والآخر- ضد الحكم البيزنطى فيما مضى، كذلك فقد ثار الرعايا المسلمون وانتفضوا ضد الحكم العثمانى الذى امتد لأجل طويل.

إن الإمبراطوريات الكبرى لا يخلو تاريخها، أبدا، من أن يشهد بعض مظاهر الاستياء العميقة من قبل الرعايا فى هذا المكان أو ذاك. فنظرا لعشرة قرون من عدم ثقة الأرثوذكس بروما والغرب من جهة، وضرورة التعايش الأرثوذكسى مع الإسلام كوضع مستحدث من جهة أخرى -لم يشهد الإسلام، فى بسطه لنفوذه على امتداد الإقليم، قلاقل أو اضطرابات محلية تذكر. ولقد عاشت جماعات مسيحية

عديدة فى الأقاليم العربية فى ظل الحكم العربى لنحو ستة قرون قبل سقوط القسطنطينية. وبينما يمكن النظر إلى عام ١٤٥٣ باعتباره رمزا أو حدا فاصلا، إلا أن الحقيقة تكمن فى سيرورة الأحوال واستدامتها فى الإقليم. فأيا من أضحت بيده مقاليد الأمور فى الأراضى المشرقية والأناضول والبلقان، فقد غدا حاملا لإرث جيوبوليتيكى من التوترات مع الغرب. وفيما يتعلق بروسيا، سنرى ملامح ذلك الإرث تنتقل إلى العالم السلافى الشرقى لتخلق علاقات جديدة متشابكة فيما بين المسلمين والمسيحيين هناك.

وفقا للمصادر التاريخية الروسية القديمة، فقد شقت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية والأرثوذكسية طريقها، منذ أكثر من ألف عام، إلى كييف، مهد الدولة الروسية الوثنية المبكرة. فعقب انتصار القسطنطينية على روما -- فى قرن سبق ذلك، فضل البلغار والكثير من الشعوب السلافية الأخرى اعتناق المسيحية الأرثوذكسية على المسيحية اللاتينية. ويذكر أن الأمير "فلاديمير العظيم" -أمير كييف- كان قد أرسل مبعوثين إلى مراكز الديانات الكبرى لتحديد مدى مناسبة أى منها لاعتماده وتبنيه فى روسيا رسميا. وتزخر الروايات والنوادر المتواترة بردود أفعال أولئك المبعوثين حين عادوا إلى روسيا يحملون تقاريرهم وانطباعاتهم :

فبالنسبة لمسلمى البلغار فى وادى نهر الفولغا، فقد أورد المبعوثون أن البسمة والسعادة لا تعرفان طريقا إليهم، إذ يتسمون بمظاهر الحزن التى تعلو وجوههم، فضلا عن رائحتهم الكريهة المنتنة. كذلك، فإن دينهم غير مستحب لتحريمه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير. وقد أورد الأمير "فلاديمير" مقولته كانطباع لما سبق : "إن شرب الخمر هو لذة الروس ومتعتهم".

كذلك أرسل "فلاديمير" مبعوثين إلى اليهود سائلا إياهم عن دينهم الذى رفضه أيضا، إذ ذهب إلى أن فقدانهم لأورشليم دليل على أن الرب قد نبذهم. وأخيرا، انحصرت المقارنة ما بين المسيحية الكاثوليكية والمسيحية الأرثوذكسية. "ففى

كنائس ألمانيا المقبضة، لم يستشعر مبعوثو "فلاديمير" أى ملمح جمالى، أما فى "آيا صوفيا" بالقسطنطينية، حيث أديت الطقوس الاحتفالية بالكنسية البيزنطية لإبهارهم، فقد وجدوا ضالتهم المنشودة هناك. وقد ورد عن المبعوثين قولهم : "فى آيا صوفيا، لم نكد نعرف ما إذا كنا فى الجنان، أم ما زلنا من أهل الأرض ... إن الجمال الذى شهدناه ليعجز البيان أن يوفيه حقه، ويكل اللسان عن تصوير كنهه". إذاً، فقد تم الاختيار بما انطوى عليه من دلالات حضارية عميقة تستشرف المستقبل، على أننا واثقون من المكاسب السياسية والدينية الكبيرة التى حققها "فلاديمير" من خلال تحالفه مع القسطنطينية.

إن اعتناق روسيا للمسيحية كان نصرا ومكسبا جيوبوليتيكيا كبيرا للأرثوذكسية : فإلى اليوم تظل روسيا أكبر تجمع للطائفة الأرثوذكسية على الصعيد العالمى. كذلك، فإن روسيا هى المعبر الدينى الوحيد الذى تمتلكه الكنيسة الأرثوذكسية لقوة عالمية عظمى. وفى الوقت ذاته، ستدخل أفواج تلو أفواج من الرعايا المسلمين تحت سيطرة الإمبراطورية الروسية النامية لتتحول روسيا، كذلك، إلى "دولة إسلامية" هامة.

ولم يخامر العثمانيين أية شكوك فى الطابع التاريخى والثقافى "للجائزة" التى حازوها، وانتقلت من البيزنطيين إلى أيديهم، فقد كانوا يلمون، عبر فترات ممتدة، بنظم الإدارة والحكم البيزنطى وهم يضمون، على نحو تدريجى، مناطق قصية وأراضى نائية من الإمبراطورية إلى حيازتهم. فسرعان ما سعى السلطان الغازى "محمد الفاتح" إلى جعل القسطنطينية عاصمة ذات طابع عالمى متعدد الثقافات. كذلك، فقد دعا جميع المسيحيين الذين نزحوا من الإمبراطورية للعودة إليها، وإعادة المدينة إلى ما كانت عليه سلفا. أما بطريرك القسطنطينية، فقد خول سلطة الإشراف على الجماعات الأرثوذكسية بأكملها على امتداد الإمبراطورية. وفى حقيقة الأمر، فإن سلطات البطريرك ومساعديه، فى ظل دولة الأتراك العثمانيين، قد جوبهت بالاستياء من قبل بعض الجماعات الأرثوذكسية باعتبارها انتهاكا لما تمتعت

به من حكم ذاتي آنفا. بيد أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت تستعد، آنذاك، لأربعة قرون طوال من التعايش في ظل الإمبراطورية العثمانية ... ذلك التعايش الذي سيعمل على تغيير كل منهما.

وفي الوقت ذاته، فقد تجشمت الكنيسة تكلفة حضارية باهظة. فبالرغم من تمكنها من تسيير أمورها وفق سلطة دينية قوية في ظل الإمبراطورية العثمانية، إلا أن نفوذها السياسي، الذي جرد من مؤازرة دولة أرثوذكسية أيا ما كانت، قد تم تقليصه على نحو كبير. وفي ظل الإمبراطورية العثمانية، زادت عزلة الكنيسة الأرثوذكسية، وتقلصت روابطها بالاتجاهات الثقافية والدينية السائدة في الغرب آنذاك. كذلك، فقد أضحت الكنيسة أكثر انطواء على ذاتها، وواصلت اتجاها تراجعيا سابقا من قضايا وأمور ثقافية و"عقلانية" لتمثل ما كانت تصطبغ به الأرثوذكسية كسمة مميزة غالبة – أهمية الإيمان والبعد الديني في الحياة "الروحانية" للفرد. وفضلا عن ذلك، غلب على الكنيسة شعور عميق بالثنائية ما بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية. فوفقاً للرؤية الأرثوذكسية، تصطبغ الكاثوليكية اللاتينية و"الغرب" بالمظاهر المادية و"العقلانية" (تغليب قيمة "العقل" وإعلاؤها على الإيمان و"الروحانيات") وكذا بالنزعة الفردية الخالصة، ناهيك عن الفساد الناجم عن العلاقة وثيقة العرى ما بين الكرسي البابوي والكنيسة من جهة، والسلطة السياسية الدنيوية من جهة أخرى ... تلك العلاقة التي أفضت إلى خواء روحاني عميق. فالكنيسة الأرثوذكسية ترى روحانياتها بأنها انبثاق مباشر من التعاليم المبكرة للمسيح نفسه، والتي لم تلوث بفعل "سياسات" الكنيسة اللاتينية والكرسي البابوي. إذ دائما ما كان ينظر إلى روحانيات وأخرويات الأرثوذكسية بأنها تمثل ما كان يفتقر إليه الغرب المفصح عنه، باستحقاق وجدارة، في جدبه وخوائه "الروحاني". وتهيمن تلك الأفكار بقوة على روح الأرثوذكسية وعقلها، وتبقى حاضرة في "بلاغاتها الخطابية" إلى يومنا هذا.

روسيا أو "روما الثالثة"

لقد آذنت شمس الإمبراطورية الرومانية الشرقية بالأفول، ولكن ما كان للأعراف والتقاليد الإمبريالية للمعتقد الإيماني الأرثوذكسي لتذوى مع سقوط القسطنطينية ... إذ تم الحفاظ عليها بواسطة "إيفان الثالث" – قيصر روسيا، والذى أعلن موسكو "روما الثالثة" لتخلف مركزى النفوذ المسيحى الرومانى والبيزنطى. ولتعضيد ادعائه، فقد قام "إيفان" بتعزيز أواصر رابطة ملكية مع القسطنطينية من خلال زواجه من صوفيا باليولوغ – سليلة آخر أباطرة بيزنطة. كذلك، فقد استخدم شعار النبالة البيزنطى –النسر ذو الرأسين– شعاراً لملكته، والذى ما زال، إلى اليوم، شعارا للنبالة فى روسيا.

إن اعتماد مصطلح "روما الثالثة" من قبل موسكو قد تجاوز مجرد الصفة الإمبريالية، فقد مثل رؤية تبشيرية لدور حضارى وروحانى جديد ... التزام قد وضع على عاتق روسيا للحفاظ على الإيمان الصافى والحقيقى للمسيحية إزاء شرور وهرطقات كل من الكاثوليكية الرومانية والإسلام. ولعل أبرز ما يوضح تلك "النكهة التبشيرية" الروسية الجديدة – الرسالة التى بعث بها الراهب "فيلوطيوس" البسكوفى إلى القيصر "باسيلى الثالث" :

لقد سقطت كنيسة "روما" القديمة بسبب ممارساتها الهرطقية، كما انهارت أبواب "روما" الثانية تحت معاول الأتراك "الكافرين"، أما كنيسة موسكو، كنيسة "روما الجديدة"، فهى تشرق كما الشمس أو يزيد على الكون بأسره ... فأنت –يا باسيلى– عاهل جميع الرعايا المسيحيين، عليك أن تدبر مقاليد الأمور فى إطار من خشية الرب ... عليك بخشية الرب الذى جعلك على هذا الملك، لقد سقطت روما الأولى والثانية، ولكن هاهى "روما الثالثة" تقف شامخة ... فلن تكون ثمة "روما رابعة" أبدا. لا، لن تزول مملكتك ولن تخلفها أخرى.

إذاً، فالتواصل لم يتوقف عند هذا الحد، أكان ثمة إسلام أم لم يكن. كذلك، لم

يندثر مفهوم "روما الثالثة" بسبب العثمانيين. ففى تلاحم رائع ما بين الرؤى التاريخية الإسلامية والمسيحية شرقى المتوسط، شرع السلطان "محمد الثانى"، بعد الغزو العثمانى، باعتبار نفسه وارث الأعراف الإمبراطورية التى سادت فى بيزنطة، كما أطلق على نفسه لقب "قيصر الروم". وقد قام "محمد الثانى" بانتقاء بعض الأعراف القضائية والإدارية البيزنطية لاعتمادها فى الإمبراطورية بما من شأنه الحفاظ على طابعها القومى والدينى التعددى. وفى تنويعة رائعة على اللحن ذاته، ذهب المؤرخ التركى "ألبير أورطاى" إلى أن "محمد الثانى" قد رأى "القسطنطينية العثمانية" آنذاك -روما الثالثة" التى جاءت لتخلف "روما" الوثنية فى إيطاليا، وتخلف "روما" الأرثوذكسية الشرقية فى القسطنطينية- إذاً، فهى "روما الإسلامية" الآن فى اسطنبول. ووفقا لتلك الرؤية، لم يمثل الإسلام اعتراضا أو رفضا للمسيحية الشرقية، بل عمد، فى امتداد وتواصل كبيرين، إلى انتقاء العديد من الأعراف الإمبراطورية الشرقية المستقاه من المسيحية وتبنيها ودمجها فى إطار ما سيصبح لاحقا أكبر إمبراطورية إسلامية شهدها العالم ... تلك الإمبراطورية التى امتدت لآجال طوال. وفى هذا التحول الكبير، نجد الإمبراطورية تطغى فى مرتبتها على قضايا المعتقد الدينى ذاته.

وقد ورد بإحدى مراجعات كتاب يتناول العثمانيين والغرب :

... إن المناوشات والمعارك التى اندلعت بين الهابسبورج والعثمانيين (عند بوابات ڤيينا)، والتى احتشد فيها كثير من التابعين فى صفوف كل فريق – لم تمثل "صراعا للحضارات" بقدر ما مثلت "صداما للإمبراطوريات". فرغما عن الشعارات الدينية التى صاحبت تلك المعارك، فلم يكن الصراع صداما بين الإسلام والمسيحية إلا عرضا، إذ كان الهدف المرجو هو بسط الهيمنة على الأراضى كلما أمكن ذلك، إلى جانب هدف لم يقل أهمية وإن بدا أقل تحديدا، وهو الحق فى ادعاء حيازة إرث الإمبراطورية الرومانية ... ألم يزح "محمد الفاتح" الحكم البيزنطى باستيلائه على القسطنطينية قبل قرنين؟ إذ لم تكن الرغبة، مطلقا، طمس معالم التجربة البيزنطية

أو محو تاريخها، بل عمد العثمانيون إلى الحفاظ عليها كحق لهم.

الشكوك الأرثوذكسية الروسية إزاء الغرب

منذ أن انحاز الوثنيون الروس الأوائل إلى المسيحية الشرقية الأرثوذكسية بتفضيلهم إياها على المسيحية الكاثوليكية، شرعت الكنيسة الأرثوذكسية فى صبغ روسيا بقوة بطابعها الحضارى والثقافى، وتضمن هذا مهمة روسيا الجديدة المتمثلة فى خلاص البشرية وانعتاقها عن طريق نشر المعتقد الإيمانى الحق. وقد انتشرت عدة مظاهر إيمانية جاءت لتصبغ الثقافة الروسية : الينابيع الأصيلة للتصوف الروسى، تقاليد الإيمان الصوفى وأعرافه، القديسون وتجوالهم، الإيمان بزهد الفلاح الروسى وبساطته... بما يشبه زهد المسيح وبساطته، وكذلك نقاء الروح الروسية وأصالتها، فضلا عن مهمة روسيا الحضارية التنويرية. وقد اجتمعت العوامل السابقة جميعها لتعضيد المعتقد الراسخ لدى المؤمنين الأورثوذكس بشأن التفوق "الروحانى" لمعتقدهم وكنيستهم بالمقارنة بالغرب المتسم بالوحشية، والنزعة التوسعية، والمادية المفرطة، والحرص المبالغ فيه، والطابع الفردى، ومظاهر الفساد ... ذلك الغرب فى تعطشه الأبدى لحيازة القوة فى عجب وخيلاء. وقد تنامت تلك المظاهر التى اصطبغ بها الإيمان الشعبى الروسى لاحقا خلال القرن التاسع عشر فى مناهج التفكير الفلسفى الروسى فى تمجيدها للرؤية العالمية للأرثوذكسية وشمولية السلافية وعالميتها.

وإلى اليوم، تبقى روسيا تعانى ازدواجية تجاه الغرب – وهو جانب من صراعها لتأكيد هويتها. فطالما اصطدمت الآراء والمشارب الموالية للغرب مع تلك المناصرة للعنصر المحلى، ذلك الصدام الذى اتخذ، لاحقا، شكل الصراع بين "المستغربين" الروس، وبين عاشقى "السلافية"، إذ كان "عاشقو السلافية" يمثلون رؤية رومانتيكية للحضارة الروسية وأعرافها "الروحانية" الفريدة فى مواجهة الغرب بوحشيته وماديته. وقد كان هذا الخوف مبررا : فبعد أن انحسر التهديد

المغولى/التترى لروسيا فى القرن الرابع عشر، كانت أخطر التهديدات الخارجية لموسكو تلوح من الغرب سواء من قبل بولندا الكاثوليكية الرومانية، أو من قبل الفرسان الجرمانيين، أو فرنسا بقيادة "نابوليون"، أو السويد والولايات الألمانية البروتستانتية، أو من قبل هتلر.

كذلك، فقد تولد لدى الروس شعور بالدونية تجاه الغرب بمنجزاته التكنولوجية، وبلدانه القوية المسيطرة، وقوته الاقتصادية والعسكرية. وفى كتابهما الاستشرافى، "التغريب"، أشار "أيان بوروما" و"افشاى مارغاليت" إلى أن جنور الفلسفة العاشقة للسلافية والمناهضة للغرب مستقاة من الفلسفة الرومانتيكية الألمانية، والتى مثلت بدورها، فى جانب منها، ردة فعل إزاء قوة فرنسا الاقتصادية والعسكرية المهيمنة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومع اندلاع الثورة الفرنسية، أضحت فرنسا تجسيدا للشعور التنويرى يتفوق المنطق والعلم مقارنة بالدين والحدس. ولقد كانت فرنسا "الرشيدة" أيضا خلال حكم "نابوليون"، والتى بدت ممثلة للغرب – هى من شنت هجوما شاملا على روسيا، وحاصرت موسكو، إلا أنها سرعان ما منيت بهزيمة نكراء مذلة على أيدى القوات الروسية المتداعية، وبفعل "الشتاء القارس" كقوة من قوى الطبيعة التى أسهمت فى حماية "روسيا المقدسة".

إذاً، فلم يكن مستغربا أن يعتبر المفكرون الروس الأيديولوجية المحركة لفرنسا ... تلك الدولة الغربية الصليبية ذات البعد التوسعى الاستيطانى – تهديدا لروسيا وقيمتها. ولقد كانت الرومانتيكية الألمانية بإعلائها من شأن العاطفة، والحدس، والفن الشعبى، ومكانة "الطبيعة" إزاء "التصنيع" ووحشيته المفرطة – أكثر توافقاً وتواؤماً مع الفكر الروسى المنحاز للسلافية. ولقد تم تمجيد الطابع السرمدى للقيم الروسية القومية فى روايات أساطين الأدب الروسى من أمثال تولستوى ودوستوفسكى. كذلك، فقد أفرزت روسيا خلال القرن التاسع عشر نتاجا ضخما من الفكر الفلسفى الذى انتقد الأساس المادى البحت، بل والعدمى، للفلسفة الغربية. (وفى المقابل، فقد أفرزت، أيضا، نتاجا هائلا من الجدالات المضادة التى

قدمها الفلاسفة الروس المؤيدون للتغريب).

ولعل أهم وأبرز أمثلة ذلك النوع من الفكر الروسى نجده فى كتابات "قسطنطين ليونتييف"، فيلسوف القرن التاسع عشر المحافظ ذى النزعة الملكية الأرستقراطية، والذى قام بنشر مفهوم "البعد البيزنطى" – وهو المفهوم الذى يذهب إلى أن جذور روسيا الأصيلة تجد امتداداتها فى بيزنطة – المملكة والكنيسة الأرثوذكسية . وقد دعا ليونتييف إلى ضرورة مناهضة روسيا للتأثيرات الكارثية للغرب، والتى تزيت بالعدالة والمنفعة والثورة. ووفقا له، يكون على روسيا، بالمقابل، أن تتجه فى توسعاتها الثقافية والجغرافية صوب الشرق ... صوب الهند والتيبت والصين. كذلك، فقد احتوت كتابات ليونتييف على آراء صائبة سديدة ذات بصيرة ثاقبة وعمق جلى – نادى بها قبل بداية القرن العشرين بشأن التطور المستقبلى للغرب، بما فيها الإيمان بأن ألمانيا سرعان ما ستتسبب فى اشتعال حرب أو حربين كونيتين فى أوروبا. وكذلك بأن روسيا سوف "تشهد ثورة دموية تقودها عناصر لا تؤمن بالمسيح أو المسيحية، وإنما تنحو طبيعتها إلى النهج الاشتراكى والاستبدادى ... تلك الثورة التى سيعمد قادتها إلى السيطرة على مزيد من النفوذ والقوة بأكثر مما حازه أسلافهم القياصرة". وقد تنبأ ليونتييف "نبوءة" خارقة بأن "الاشتراكية هى إقطاع المستقبل".

إن الكثير من الغربيين يرفضون فكرة "مناهضة الغرب" على أنها مغالطة، لا على كونها جدلا ونقاشا يخضع للمنطق" – فكيف يمكن للمرء أن يكون مناهضا للغرب على أسس عقلانية رشيدة؟!". بيد أنه إذا كان مفهوم "مناهضة الغرب" تكتنفه بعض المغالطات، فإن طابع القوة الغربية نفسه وممارساتها ذاتها فى سعيها للغزو والهيمنة، وفى اتسامها بالتفرقة العنصرية – ينطوى على مغالطات أيضا. ولربما لا يكون الغرب فريدا فى إبراز تلك السمات، إلا أنه قد مارسها فى سياساته العالمية وفق شكل جارف وكاسح بالمقارنة بأية قوى أخرى فى العالم على امتداد معظم سنى العصر الحديث. إذاً، فالغرب كونه أكثر ممارسى تلك العناصر السلبية

فى العالم هو من يثير مشاعر الكراهية والعداء. وفيما يذهب البعض إلى تسمية تلك الظاهرة "صدام الحضارات"، فإنه من الجلى أن ذلك "الصدام" لا يرتبط كثيرا بالقيم الحضارية، وإنما يرتبط بحقائق بعينها بشأن المواجهات الغربية العنيفة مع الشرق على امتداد القرون الخمسة المنصرمة.

وفيما يمكن أن تكون صدمة للأذن الأمريكية، يذهب "فاسيليوس ماكريدس"، الباحث فى الشئون البيزنطية بجامعة "ايرفورت" إلى القول بأن "مناهضة الغرب قد بلغت أوجها خلال هجمات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وتكون أشكال مناهضة الغرب هى النتيجة الطبيعية للغزو السياسى والاقتصادى والثقافى الغربى على امتداد العالم ككل خلال العصور الحديثة فى أعقاب تنامى قوى الإمبريالية والكولونيالية".

ويضيف "ماكريدس" قائلا:

"من المثير أن نلاحظ بعض الائتلافات المناهضة للغرب، والتى تشكلت وقتذاك وفق خطوط كانت لتكون غير متناسبة أو متكافئة فى ظل ظروف مغايرة – وتحديدا، ذلك الائتلاف بين الأرثوذكس والمسلمين فى منطقة شرقى المتوسط ... فمناهضة الغرب وفقا للأرثوذكس، ونظيرتها وفقا للمسلمين كانا مختلفين تماما، إلا أن ائتلافهما لم يكن غريبا أو شاذا ... ويمكننا ملاحظة اتجاه مشابه إزاء المسلمين والمسيحيين الغربيين فى روسيا الأرثوذكسية خلال القرن الثالث عشر الميلادى. إذ فضل القيصر "الكسندر نفسكى" عقد ائتلاف مع التتار والمغول من أن يدخل مع روما فى تحالف مناهض للمسلمين، وهو ما اقترحه البابا "اينوسنت الرابع" عام ١٢٤٨ .

وبلا شك، فقد تخلف العالم الأرثوذكسى – روسيا، وشرقا أوروبا، والبلقان، وأجزاء من الشرق الأوسط – بالمقارنة بأوروبا الغربية فيما يتعلق بالتنمية الصناعية والاقتصادية المعاصرة، وهو الأمر الذى أدى إلى خلق شعور بالدونية لدى العالم

الأرثوذكسي تجاه الغرب. وقد عضد الغرب من هذا الشعور من خلال استعراضه المغرور الصلف لتفوقه الإمبريالي الذي طال الكثير من بلدان العالم ككل إبان العهد الإمبريالي، بما فيها الصين. إن جل مشاعر كراهية الغرب ومناهضته قد تولدت خارج العالم الإسلامي، كما حدث في الصين خلال القرن التاسع عشر، على أن المسلمين قد شاركوا أيضا في تلك المشاعر، مما ساعد في تعزيز نوع من التضامن بين المفكرين المناهضين للغرب.

أما الغرب، فقد كانت له بدوره نظرة عدائية استبعادية وقف بموجبها بمنأى عن العالم الأرثوذكسي. ففي أعقاب "الصدع الكبير" عام ١٠٥٤، أصبحت الكنيسة الشرقية، بالفعل، منافسا صريحا – إن لم تكن خصما لدوداً لروما. فالتخوم ما بين الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية شرقي أوروبا، وفي منطقة البلقان ظلت تصبغها الصراعات والمواجهات حتى يومنا هذا – قارن التوترات والانقسامات ما بين الأرثوذكسية والكاثوليكية في أوكرانيا، وكذلك مشاعر العداء والانقسامات الحضارية المستمرة ما بين روسيا الأرثوذكسية وبولندا الكاثوليكية، والتي اتخذت طابعا جيوبوليتيكيا.

وخلال القرون المنصرمة، فإن الأوروبيين قد ذهبوا إلى تعريف "أوروبا" بأنها "أوروبا الغربية"، حتى أنهم اعتبروا أوروبا الشرقية، عالماً آخر مختلفاً. أو بالأحرى موضعاً منعزلاً قلما تكامل مع باقي القارة الأوروبية. فوحدها الثقافات الكاثوليكية/ البروتستانتية للتشيك والبولنديين والهنغاريين هي التي أجيزت ضمن الحدود الثقافية الأوروبية. وحين سقطت أوروبا الشرقية، الكاثوليكية والأرثوذكسية، في قبضة الاتحاد السوفييتي، فإن الفجوة الحضارية بين كلا المعسكرين قد تم ترسيخها أكثر من ذي قبل. كذلك، فقد واجه الاتحاد الأوروبي مشاكل جمة في سعيه لإحداث تكامل بين بلدان أوروبا الشرقية ذات المعتقد الأرثوذكسي أكثر مما واجهه بالنسبة لتلك ذات المعتقد الكاثوليكي أو البروتستانتي. لذا، فقد كانت بولندا، وجمهورية التشيك، وسلوفاكيا، وهنغاريا أيسر أن تستوعبها أوروبا، أما رومانيا،

وصربيا، وبلغاريا، وبطبيعة الحال أوكرانيا وروسيا، وكلها ذات معتقد أرثوذكسى، فلم يكن الأمر بمثل هذا اليسر.

كذلك، فقد تم الإفصاح عن التباينات الحضارية والثقافية من خلال الفن والطقوس الكنسية. فالغرب قد أجاز استخدام الآلات الموسيقية فى الطقوس والشعائر بالكنائس الغربية لتحل محل الموسيقى والغناء الجريجورى المميز للطقوس الشرقية. أما المعمار، فقد هجر الغرب التصميمات الكنسية الأرثوذكسية التقليدية التى اعتمدت أسلوب القباب -والتى اعتمدها المسلمون لاحقا فى تصميماتهم لأبنية مساجدهم- وتبنى (الغرب) العمارة القوطية والتى كان ينظر إليها الأرثوذكس على أنها أكثر "قسوة" و"جفافا". كذلك، حافظ التصوير الدينى فى الشرق على التصاوير الأكثر انضباطا وكمالا، والتى ميزت العالم البيزنطى، تلك التى كانت على النقيض تماما من التصاوير الدينية الأكثر واقعية المميزة للغرب، بما فيها التصاوير التى تمثل "الرب" ذاته على نحو أقرب إلى الكفر والتجديف.

روسيا الجديدة

منذ انهيار الاتحاد السوفييتى عام ١٩٩١، تعكف الدولة الروسية الجديدة، والتى انبثقت من رماد الاتحاد السوفييتى المنحل، على استعادة هويتها التقليدية ومكانة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية. وبينما عانت الكنيسة كثيرا إبان الحكم السوفييتى وتم تسييسها، على نحو كبير، فى انخراطها لخدمة الدولة ومصالحها، إلا أنها شاركت الحزب الشيوعى الروسى خوفا تقليديا من الغرب وكراهية له - وعلى حين خافت الكنيسة الروسية من الكاثوليكية، فقد رأى الحزب الشيوعى، وفقا لمعتقده الماركسى-اللينينى، الغرب على أنه معقل الرأسمالية. إذاً، فالكنيسة الروسية والحزب الشيوعى كانا مدركين لتاريخ الهجوم الغربى على روسيا، والذى استهدف الإطاحة بالدولة الروسية.

إن المواقف والاتجاهات الثقافية تبقى وترسخ رغما عن مرور الزمن. لذا،

فليس من المستغرب أن نشهد، ثانية، فى ظل الفيدرالية الروسية الجديدة إحياء وانتعاشا للمخاوف والشكوك والكراهية ذاتها تجاه الغرب، تشاركها فى ذلك، على نحو مستحدث، الكنيسة الأرثوذكسية التى تم إحياؤها وتفعيلها ثانية. كذلك، فسرعان ما احتضنت الدولة الروسية الجديدة، فى مرحلة ما بعد الحكم السوفييتى، الكنيسة الأرثوذكسية ثانية كرمز ومكون أساسى من مقومات القومية الروسية. ولا تزال الكنيسة الروسية تمتلك قوة شعائرية وطقسية جاذبة يمكنها أن تستحث الشعور القومى- ذلك المزيج القديم الذى ينتظم الدين والخلاص والإثنية والقومية.

إن المخاوف الأرثوذكسية المعاصرة من الغرب لها ما يبررها. فالمشاعر قد استثيرت بقوة حين هرعت إرساليات التبشير الغربية بالكاثوليكية الرومانية وبالبروتستانتية إلى روسيا عقب انهيار الاتحاد السوفييتى لملء الفراغ "الروحانى" فى هذه المرحلة بالسعى لجعل الأرثوذكس يعتنقون المذهب الكاثوليكى أو المذهب البروتستانتى. وقد تم تكريس مخصصات غربية طائلة لتسهيل عملية تحول الأرثوذكس إلى اعتناق أى من المذهبين، فى وقت كانت المصاعب الاقتصادية فى الاتحاد السوفييتى على أشدها. وفى هذا الإطار، فقد اتهم البطريرك الروسى روما بالسعى لشراء ذلك التحول المذهبى لمواصلة هدفها القديم لاختراق العالم الأرثوذكسى لإرساء دعائم الهيمنة الكاثوليكية. وفى معرض تعليقه على هذا الشأن، أورد أحد المراقبين الغربيين :

"هنا فى موسكو، إلى جانب سان بطرسبورج، وغيرها من المدن الروسية الكبيرة، فإنه من الصعب عدم ملاحظة مواكب الوعاظ، والتبشيريين، ورجالات الكنيسة، والمعلمين غير المقيمين تفد من الولايات المتحدة الأمريكية، وغرب أوروبا، وكوريا، والهند ... وقد انتشرت دعوتهم ورسالاتهم داخل محطات الترام، وبداخل صناديق البريد، كما أمطرت تلك الرسالات أثير الإذاعات وموجاتها ... لذا، فليس مستغربا أن يشعر العديد من الروس بالانكشاف والخوف وأنهم غير مستعدين لأولئك الأجانب من حاملى "كلمة الرب ورسالته". وقد رغب البعض منهم فى كبح

جماح ذلك الإعصار الدينى إن لم يخمدوه بالكلية. وفى هذا الصدد، قام البرلمان الروسى، "الدوما"، بالكشف عن تعديلين مقترحين بشأن قانون "الحريات الدينية" بما يتماشى مع تلك المشاعر كونها انعكاسا لها.

وفى محفل دولى للشعوب الروسية عام ٢٠٠١، أشار العديد من المتحدثين إلى انتشار الملل والمعتقدات الدينية الغربية فى الأراضى الروسية. وقد مرر البرلمان الروسى مشروعات قوانين للحد من حرية التبشير فى روسيا – حيث كان الهدف هو الحد من انتشار التحول إلى المسيحية الغربية، لا الإسلام. وفى هذا الصدد، فقد آزر الكثير من الروس هذا الدفاع عن الإيمان الروسى المحلى إزاء التأثيرات الخارجية، والتى كانت أهدافها ونواياها موضعا للشك. لذا، فقد جعلت الكنيسة الأرثوذكسية من الصعب على الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية، وعلى نحو خاص الكنيسة الإنجيلية أن تمارس التبشير فى روسيا أو القيام بتدشين كنائس جديدة أو تنظيم أخرى قائمة. ولمرة أخرى، أضحى المعتقد القومى التقليدى محركا رئيسيا للتيه الحضارى والزهو القومى، وتتوازى هذه الظاهرة، تماما، مع الدور الذى يضطلع به الزهو القومى على امتداد العالم الإسلامى حين تواجه الجماعة المسلمة "غربا" ذا ثراء وسطوة ... ذلك الغرب الذى ينظر إليه بأنه يسعى إلى إضعاف شوكة الإسلام. ولا يرتبط ما سبق كله بالدين، وإنما يرتبط بالهوية والتقاليد.

فالكنيسة الأرثوذكسية، وبحق، تحمل تاريخا يربو على عشرة قرون من الإيمان، والشعائر الكنسية، وموسيقى الطقوس، والقديسين، والأيقونات. وبينما لا يجعلها ذلك بالضرورة كنيسة للدولة، يرى الكثير من الروس أن الأرثوذكسية هى دين الدولة، إذ يذهبون إلى أن روسيا لا يمكن إلا أن تكون أرثوذكسية، وأنه، وفقا للتاريخ، فإن الكنيسة الأرثوذكسية كانت على الدوام كنيسة الدولة.

إذاً، فالدولة الروسية تقوم بإحياء قوميتها وإنعاش الأعراف القومية والأمجاد

بخاصة من خلال الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بوصفها محركا ثقافيا وحضاريا بعيد الأثر. وفي هذا الخصوص، فقد تم استعادة المقومات المسيحية الآن ودمجها بالمشهد السياسي في روسيا، والذي اصطبغ بالإلحاد إبان الحكم السوفييتي، إذ أخفقت ثلة قليلة من السياسيين خلال ذلك الحكم في استحضار أهمية المبادئ والقيم الدينية. وقد أورد "جريجوري يافلينسكي"، زعيم حركة "يابلوكو" السياسية ملاحظته بأن "غياب الإيمان يعد مقدمة للفساد والبيروقراطية، مما يؤدي بالتبعية إلى استشراء ظاهرة الإرهاب ... فالإصلاحات الاقتصادية المطبقة في دولة لا تؤمن بوجود "الرب" تعد ضربا من المستحيل".

أما "فاليري غانشيف"، رئيس اتحاد الكتاب الروس، فقد صرح وأعلن مخاوفه من "أن روسيا تقوم باستنساخ خلايا "اللاأخلاق"، والتي اكتسبتها من الثقافة الغربية"، كما طالب بأن يعرض مطلباً جماهيرياً على الحكومة مفاده أن يتم إنقاذ البلاد من الفساد والفسوق. كذلك، فقد يتم تأجيج تلك التوترات وترسيخها عن طريق ما يعرف "بالإشكالية التوحيدية"، القائمة حتى الآن، فيما بين الكاثوليكية والأرثوذكسية حول أحقية وجدارة من سيمنح حق التحكم في الكنيسة "النسطورية"، وكنيسة "أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح"- وذلك في أوكرانيا وبيلاروسيا – وهي قضية شائكة تماما في الصراعات الجيوبوليتيكية فيما بين روسيا والغرب.

إعادة إحياء الأرثوذكسية

يمكن أن يسلك التحول لاعتناق دين آخر أو ملة مغايرة مسارا ما، كما يمكن أن يسلك المسار المضاد. وقد لاحظت الكنيسة الأرثوذكسية، على امتداد العالم، في شعور يملؤه الرضا، اهتماما متناميا بالأرثوذكسية، واتجاها من الطوائف والملل المسيحية الأخرى إلى اعتناق رسالتها الدينية الأكثر أصالة ونقاء. وقد نادت بأن جوهر الدين هو "الروحانيات" ... هو كلمة "الرب" التي تملأ حياة المرء بالورع

وتصبغها بالصلاح والتقوى، ويكون المرء فى ذلك ساعيا أن يصبح "عبدا ربانيا" فى مختلف مناحى حياته. إذ يمكن أن يأتى خلاص المرء وانعتاقه فى هذه الحياة الدنيا، لا أن يؤجل إلى الحياة الآخرة – إذا حررت "الروح القدس" المرء من الخطيئة، وغمرت النفس "بالروحانيات". إذاً، فالطقوس والشعائر الدينية قد أريد بها أن تملأ القلوب بكلمة "الرب"، وأن تثير المشاعر والحواس من خلال حرق البخور، وسماع الألحان الروحانية، ورؤية الإيقونات، والاستمتاع بالأردية والملابس الطقوسية، واستشعار السعادة والوجد، واستحضار "الرب" فى حياة المرء، وتزكية النفس بالتأمل "الروحانى"، والاقتراب من العمق الإيمانى، وتلمس الطاقة الروحانية المقدسة والنهل من معينها خلال الحياة الدنيا، وعدم الانتظار للتمتع بها فقط فى الآخرة... فى المجمل، إنها تجربة دينية يراد بها إنعاش "الروحانيات" لدى المرء. ويؤمن معتنقو الأرثوذكسية أن الخصائص الروحانية للكنيسة يتم تحجيمها وتهميشها فى المناخ العلمانى الدنيوى الجارف، والذى تحيا فيه الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية فى الغرب، واللتان تذهبان، فى بعض الأحايين، إلى الاهتمام بالصرعات الاجتماعية ونزعات الممارسات السياسية المختلفة. ويذهب الباحث الأمريكى "نيقولاى بترو" إلى القول بأنه "إذا ما قدر لأوروبا القرن الحادى والعشرين أن تتزيا بإهاب دينى، فسيكون هذا الإهاب، بالأساس، متمثلا فى المسيحية الأرثوذكسية الشرقية"، فى إشارة منه إلى نزعتها الروحانية الغالبة.

إن الصدع القائم بين المسيحية الأرثوذكسية والمسيحية اللاتينية هو صدع بعيد الغور عميق المدى، وهو أقدم من ذلك الصدع بين الإسلام من جهة، والمسيحية من جهة أخرى. وقد تأثر كلا الصدعين، على نحو كبير، بالاعتبارات الجيوبوليتيكية للهيمنة والنفوذ، وقاما بتوظيف الدين كرمز، أو بالأحرى كمحرك لذلك التنافس. وبالقطع، فإن هناك تباينات عقدية عدة، إلا أنها قد اتخذت أشكالا جديدة حين تم ربطها بالبلدان المتصارعة وبقوى المشاعر القومية المتأججة.

ولعل المثال الأوضح والذى يعكس أصداء أمثال تلك المشاعر هو الطيف الدينى

واسع المدى الذى تتراوح بين طرفيه العديد من الطوائف الدينية اللبنانية اليوم – السنة، الشيعة، المارون، الروم الكاثوليك، البروتستانت، الأرثوذكس الشرقيون، الدروز ... وكثير آخرون، وعلى امتداد ذلك الطيف الواسع، فإن الأرثوذكس الشرقيين، على وجه الخصوص، هم الأكثر امتلاكا لحس فطرى بطبيعة الملمح النفسى للمسلمين، وكذا بممارساتهم السياسية. لذا، فليس من قبيل الصدفة أن يحتفظ على الدوام بمنصب وزير الخارجية فى لبنان لفرد من الطائفة الأرثوذكسية. إن الأرثوذكس الشرقيين فى لبنان يدركون، بالفطرة، طبيعة التوازن ما بين المسيحية والإسلام، ودورهما المشترك المؤدى باقتدار وبراعة ضمن فعاليات السياسة الدولية ومعطياتها. ويحوز الأرثوذكس الشرقيون هناك ثقة المسلمين بأكثر مما تحوزه أى من الطوائف المسيحية الأخرى. وتنبع تلك الحساسية الأرثوذكسية، فى جانب منها، من قدر من الحذر والاحتراز إزاء السياسات الغربية، كما تنبع من إدراكها أن المسلمين والأرثوذكس، حتى ولو لم تكن علاقاتهما البينية تصبغها المودة والألفة على الدوام، فإنهم يتقاسمون بالفعل تاريخا حميميا ورؤية عالمية مشتركة. إذا، فالمواقف والاتجاهات الشرقية تتجاوز فى نظرتها "الإسلام" باعتباره دينا ومعتقدا.

ولكن، كيف تأتى لروسيا أن تحافظ على علاقاتها بسكانها من المسلمين ذوى الكثافة العددية المرتفعة نسبيا، وكيف تفاعلت مع التوترات الإثنية والأيديولوجية الناشئة؟